عمالقة في زجاجة

فائزة بجائزة
قارئ القصة

— بقلم : محمد فكري مراد

رحت ارقبه وهو يميل مع المنشار بقوة كلما دمعت او حدقت فيرق في الخشب بحشرجها كوحش مجنون لاتهل انيابه الامراس ، متمائر تحت اسنان سلاحه الرهيب درات خشبية دقيقة يتطاير بعضها مع درات الهواء ثم يستقر على البلك الطويل الذي يعمل عليه .

وتساءلت بيني وبين نفسي عن عجب ايمكن لمثل هذا الجسد المتين ان يسقط مجاه ودون تعب ، فيصرع في الارض كحيوان مذبوح ، ويصدر عنه خوار كخوار الثور ؟

واخذت اتملى اجزاء جسده ، واسير بصوره بناظري كل بعضل القامة ، بجعد الشعر قليلا ، عيناه عسليتان واسعتان ، ووجهه لم يكن نحيلا . وكانت بنيته قوية ، ودراعه الاسمر الذي يبدو من كمه المرفوع ، متين ، سرر عضلاته كلما دمع المنشار او سحبه اليه .

ومع المنشار حانيا بعد ان انفلتت قطعة الخشب المثلثة بين فكي المنجلة الى شطرين وصاح بالصبي :

— الفارة يلعن .

وكان الغلام كان يتوقع طلبه ، فما ان نطقت شفتاه بنصف الكلمة حتى كان قد وضع « الفارة » بين يديه . ثم راح يقلب الغراء بقطعة خشب صغيرة .

وينظم بعض الادوات ، فثمة فارة هنا .. وكماشة هناك . وباقي لوح البلكاش بنقله الى ركن المحل . وعاد يقف مترقبا بنظر بادرة اشارة من احد العمال حتى يضع بطلبه بين يديه .

ولم تكن تلك الصورة الرقيقة تفارق ذهني ابدا . فكلما رايت الاسطى سعدان لا يلبث ان يدور بذهني اعصار عنيف وتتملكني دوامة من الحيرة ، لا يخرجني منها مشاغلي بالنظر الى المارة او بمرؤوس المحل من الدواليب والاسرة او حتى بالحديث مع بعض العمال .

لم يكن يبدو على الاسطى سعدان الضعف والهزال حتى يمكنني ان اقبله في هذه الصورة ، ولم يكن يبدو من حديثه انه يحتل في قواه العقلية او به مرض . بل على العكس من ذلك ، عرفت من احاديثه انه يقوم بواجبه في الحياة كاملا . ويتحمل مسئولياته تماما . حكى لي ذلك هو نفسه . وأحيانا اخرى كنت التقط من بين احاديثه المتناثرة ما جعلني

احيط بكثير من جوانب حياته ، فلم أجد فيها أبدا ما يشير الى انه انسان مريض .. او سعيد ، وكنت بعد حنت الى هذا المحل لعمل سرير امر عصر كل يوم لاشرف على نوع الخشب ، ودقة الصنع . فيجلسون لي مقعدا على عتبة المحل اشرف منه على الشارع . وقد اوصاني صديقي الذي قدمني لهذا المحل بالاسطى سعدان . قال لي ادع الاسطى سعدان يصنع سريرك لانه اذق صانع في الورشة . وداعب الاسطى سعدان قائلا : احد ملك من البيه احسن ده عزيز عليا .. فلم يتمالك الاسطى سعدان ان قال بصوت هادىء وابتسامة بهدئة من عيبي الاثنين .

هذا رايت الاسطى سعدان لاول مرة . وقد ارتحت اليه ، ارتحت الى هدوئه من الكلام والى اخلاقه وخاصة بعد أن رأيت معرفتي به وازدادت بيننا الالفة .

كان صورة مناقضة لزميله الاسطى علي باخلاقه المحمودة ، وعيوبه الممسوحة . وكانت اخلاق كل منهما تنعكس على مظهره وصحته . فبينما كان الاسطى علي يعود الى بيته بعد انتهاء العمل مقيئا وملطوخا بالطين بالعراء وبالتشقف ، كان الاسطى سعدان يغتسل جيدا ويغير ملابس العمل بملابس نظيفة رغم قدمها ، وحذاء مرتق . وبينما كان الاسطى علي يسمع كل شيء بلا دقة ولا اهتمام . كان الاسطى سعدان يولي عمله عناية كبيرة . مما جعله محبوبا من العملاء . وجعل صاحب المحل لا يستطيع ان يفرط فيه لاي سبب .

والتقط الاسطى سعدان قطعة الخشب بعد ان مسحها بالمنشفة . ونظر الي قائلا :

— شايف بابيه ، حاجة مظبوطة عشان خاطر عيونك ، وخشب زان ممرة واحد .

فقلت :

— تعيش يا اسطى سعدان .. ده عشمنا فيك .

والقى قطعة الخشب جانبا . والتقط القطعة الاخرى يمسحها « بمنشفته » وكنت في تلك الاثناء قد انشغلت عنه بمشاهدة باقي امرأة جميلة تمر أمام المحل . وما كدت أسحب نظري من على خدها حتى التقت عيناي بعيني الاسطى سعدان .. كان يختلس النظر الى المرأة وعندما احس انني رأيته .. سحب نظريه بسرعة والمشرق .. وتشاغل عني بقطعة الخشب ، وحرص على الا تلتقي عيناه بعيني .

وكان الاسطى علي قد خرج من داخل المحل ، ووقف على عتبة الباب يتبع المرأة بنظريه ويصيح وهو يعلق بيديه : ياحلاوة .. ياحلاوة .. يا سلام ياحدهان . والتفت الى كمن يتشاغل بعملهم بين دول يابه .. ثم التفت صائحا بسعدان كمن يسقط مقلبا :

— عينك يانمس ..

فنظر اليه سعدان مستنكرا ، وقال محذرا وهو يشير له بيده :

— ياحدع انت ملاش كلام فارغ .

فنظر على نحوي مستجدا ، وقال

— انا باسمعرب لحدع ده عايش لبه .. سيبها .. يقول بصحكوا عليها

بالله . حمى حبيبة ما يتعدش يشم فيها شوبه هوا . دى السوان ريحة الحياة الدنيا ...

ونظر اليه ـــــعدان ولم يتحدث . تعثرت الكلمات على لسانه . واحدت شحتا انفه تصيقل وتتمرجل . ثم صاح مجاة

ـ يعنى ما يشـــوهيش .. ما يتشوهيش فى شارع فؤاد وســـليمان باشا سيقوا عادلين اراى . واحد مردد النظر بينا مكملا ـ محتكين العســـاتين على جسمهم حلمس .. والا رجليهـــم الـ .... العريانة . ودراعتهم ده و .. و .. حاجة تخلى الواحد ...

ولم يجد كلمة يتم بها حـــديثه . صـاح

ـ ياهوه ...

وابتسم على ابتســـامته حميمة حينما وجد نظرة يمعد منها الى الاســـطى سعدان ، وسأله :

ـ وانت انه اللى سودنك شارع فؤاد وسليمان باشا يا الـطى سعدان . ؟

ونظر اليه سعدان كمن سيط بظلمـا بالحريمة . ثم قال :

ـ اهو ساعات لواحد باخدها مشى وهو مروح .

مال على الاسطى على وهمس :

ـ امـله مقرم اوى . تصـور اكلنا كله مول وطمية ويوم ما اقول له تعالى نشترك فى نص كباب .. يقـول لى باشيح .. اهو اللى ياكل كباب يشبع واللى ياكل طعمية يشبع .

مقال :

ـ ماتصدقوش يابنيه دا كلى بيقولك انى مروح شارع فؤاد مخصوص عشان اتفرج على السوان . حاكم هو دايما كده يحب يقرفنى .

مقلت :

ـ وامرض مروح مخصوص ..

ماردف :

ـ اعود بالله . هم دول وراهم الا المتاعب .

ـ متاعب ايه يالـطى سعدان ..؟ انت شفت من متاعبهم حاجة ؟

ـ شفت كتير

قالها على عجل كما لو كان له خبرة دهر بالنساء . ثم اردف

ـ تصور يابنيه .. اخويا . لخويا الكبير يعنيها مشغل مره .. كان عايش معانا فى نفس البيت .. اخويا مشغول ولسا اخدين على وش جواز . واخ صغير فى المدرسة .. يقوم مروح هو يحـب واحدة ويجورها . ويســـيبنى فى البيت لوحدى .

مقلت محاولا ان اشجعه

ـ متقلقش يالـطى سعدان .. انت ادها وادود .

ـ وشرفك يابنيه ما مخليهم عاورين حاجة . انا راجل جدع اعرف الواجب .. بوميش اربعين مـاع بعزمها عليهم .

وانتهى سعدان من مسح قطعـــة الخشب . وصاح بصبيه ان يحضـــر الغداء . وجرى الغلام بسرعة الى وعاء

المرأة محمله من فوق الموقد . واقترب من سعدان الذى امسك بفرشة العراء، ومال على الوعاء . . .

وعادت الصورة المرعبة التى لم تفارق ذهنى تعصف به من جديد . صورة سعدان وهو يميل على الوعاء ويسقط فوته على الارض . فيمسك العراء ، ويتمرغ فيه سعدان كحيوان مذبوح وهو يصدر خوارا كخوار الثور .

هكذا وصفه لى صديقى حينما أحضرنى الى المحل . قال : مسكين سعدان . . ولد كويس وابن حلال . . لكن ما عرفش ايه اللى عليه . . تبص تلقاه محاة راح واقع على الارض . واشتح ومش رى حتة لحشب ويطلع صوت . . أعوذ بالله . . رى صوت الثور المذبوح .

وكنت ارقب سعدان دائما ، وأعجب ان يحدث ذلك لمثل هذا الجسد المتين ، حتى شاهدت ذلك بنفسى . ولا ادرى السبب فيما حدث . فقد كنا نتحدث حديثا عاديا . وكان الاسطى على بداعبه باحدى عباراته . قال : ايه رايك تشاركنا فى نص كباب النهاردة على العشا . . ونروح السينما بعد ماتخلص شغل . . . ؟ ارقط ياأخى يوم كده ويطل الحتة بتاعتك دى . . .

وابتسمت انا ونظرت نحو سعدان ، ولكنه أسهم محاة . وبرقت عيناه ، واتسعت منخراه انفه وصاقتا . وتلوت شفتاه كما لو كان يريد ان يقول كلاما يعصى عليه ، ثم شهق شهقة متقطعة وسقط على الارض يخور كثور مذبوح

ومنذ تلك اللحظة وهذه الصور لم تفارق خيالى . حيث وقفت مشدوها التمس بداخلى اسبابا لعمل اى شىء .

وخرج الاسطى على من داخل المحل ومى يده بصلة ، هشمها بالشاكوش ، واخذ يشمشها له ، ويبرت على وجهه . وبذلك راحته . وبدا لى حينذاك ان العالم قد توقف عن الحركة . . حتى رايته يمشى قليلا قليلا . وينظر الينا كأنه عائد من عالم بعيد .

وضع الاسطى سعدان الفرشة فى وعاء العراء ، وراح يفرى قطعة الخشب بالشاكوش على مهلنا وهو مقدم من الداخل .

— ماتروح تجوز بقى ياأخى بدل ما انت طول النهار عيلك على القهوة .

والقى سعدان الفرشة وقطعة الخشب من يده على الدكة ، وانهمر بينه وبين نفسه .

ثم صاح عاليا :

— لا اله الا الله . انت ياجدع انت مش حتتطل تقريفى . .

ورايت ان اخفف قليلا من غضبه فقلت :

— طب وعلان ليه ياأسطى سعدان . . هو الجواز وحش . . ؟

ونظر الى لحظة ثم ابتسم ، وسألنى

— لازم حضرتك مجوز ؟

— انا مش مجوز لانى مصرف على عيلة رى حالاتك . لكن مابكرهش الستات ربك . يحميهم .

وتمرس سعدان فى وجهى كأنه يحاول ان يقرأ معنى طرأ له . ثم ابتسم قال :

وتلاقي سلة ..

وفاجأني قول سعدان . كنت بين حين وآخر أفكر في عمري الذي يضيع، وأمد لنفسي عاما بعد آخر ، فيستطيع عقلي أن يكيف نفسه ويجد من المبررات ما يخفف وقع الحقيقة . ولكن سعدان وضع يده على الحقيقة مرة واحدة فأحست بشيء دوار . واحتدت تطن في رأسي الكلمات التي راحت تنطلق من فم سعدان :

— وتقول إيه في أخويا اللي أحسن ولا سالش في حد .. واللي حصرتك لو حد دخ تعمل ريه .. ده حرام .. واللي ده حرام . واللي آدم عمره يضيع يوم ورا يوم .. لحد ما يبص لاقي نفسه فقد خمسين سنة .. و .. و ..

ولاحظت منحنى أنفه يضيق وتتعرجان ، وشفتيه تتلويان ، وشعر شهقة خفيفة توشك بعدها أن يسقط على الأرض . وبدا لي كأنه رجل صغيرة في داخلها أشياء كالمطاطة لا تتسع لها . وخيل إلي أنه قد تهشم وانهار على الأرض. ونظرت إلى الأرض فلم أجده . وجاءني كلماته وهو منصب بجوار السلك . وكانت رعشة قد أصابتني . وانتابني شعور يدعو للغثيان .

— بلاك عشت حياتك كلها محروم.. محروم من بيت تعرفها لتصرف عليها ترتاح .. محروم من أكلة نضيفة متاع البطاطة .. محروم منه .. وانت تعمل إيه .. ؟ حبك إيه انت .. ؟ أدا كل أخوك الكبير راح أحور .. هو انت مسئول من الخلق دي .. والا.. والا .. أنا عارف بقى مين اللي مسئول ..

وسكت سعدان وهو يتنفس في راحة وهدوء . وبدا كأنه قادم من عالم بعيد . تماما كما يبدو جيشا يعيق من إحدى نوباته . ولاحظ امتلائي ووجومي فاقترب مني متعجبا ، ولم أكن قد أفقت تماما ، ونظر إلى لحظة ثم صاح :

— الله .. مالك يابيه .. ؟ الاستاذ بيه حيغمى عليه .

وجاء صوت على المصوح — حين دخل — من الداخل :

— اكسر له بصلة !

فقلت :

— لا ياصباعة .. متشكر .. الحكاية مش حكاية بصلة .

وبدت المناظر تتضح أمامي . ورغم الصور المهروزة التي بدت تحت عيني ، رأيت سعدان مازال متجسما بقامته . ودهشت . لماذا لم يقع سعدان ويتمرغ على الأرض ، ويحور كالثور المذبوح .؟ ولكن الذي أثار دهشتي أكثر أنني لم أشكر لسعدان على شيء من ذلك ... كما أنني ليس لي أخ أكبر .